—١٢—

من بروكسل الى ميادين الحرب الكبرى

اتينا عاصمة البلجيك من باريز في قطار يسمونهُ القطار الأزرق وكانت قد مرت بنا أيام وأسابيع وليس لنا من مطية الا سيارتنا ميمونة الطالع فآنسنا القطار بعد طول وحشة وخفرنا لهُ دخانه الكثيف ذا الرائحة الكريهة لقاء المقاعد الوثيرة يمدّ احدنا رجليه عليها — في غير ايطاليا — ويتمطى ساعة ويقف اخرى غير مقيد بمجلسه كما في السيارة

وطرأ على خاطر صاحبنا المصري فكر ثاقب قال : لماذا لا يجعلون دخان القطار يتسرب الى الهواء من آخر عربة من العربات بدلاً من ان يتطاير من القاطرة في الأمام فيعمي الركاب ويسدُّ عليهم المنافس ويلقي على اثوابهم وامتعتهم طبقة من الاقذار . وليس يعيد على همة المهندسين ان يبنوا انابيب تتصل بالعربات حتى الأخيرة منها فينطلق بها الى الفضاء . فاذا احد الرفاق يترُّ لهُ بالبقرية وهزأ منهُ البائون

وصلنا بروكسل في الطفل وسحاب سمائها قد غال ضوء نهارها وأخذ يصب على المدينة مطراً كأنهُ ماء القرب فهرولنا مسرعين الى فندق رحب فخم كأنهُ قصر رجل اغتنهُ حوادث الدهر بعد امعانها في افقار اجداده فأصبح كاملاً تامًّا مستوعباً كلَّ ما يطلقون عليهِ احدث اساليب الراحة العصرية

وما راع صديقنا الانكليزي الاَّ هؤلاء الناس الواقفين على خدمتنا فاذا تحرَّك ليركب الرافعة بادره الخادم بقوله (اذا شئت) او نزل منها اعادها عليهِ (اذا شئت) او قدم لهُ الدق الطعام كرروها (اذا شئت) او تاول الطعام او ابى وهكذا حتى ضاق صدره وصرخ ما لهذا اللطف الزائد؟ ايقلقون راحتنا بهذا التأدب المصطنع ؟ ان خيراً منهُ السكوت ! ثم فهمنا بعد ان اقمنا اياماً في بروكسل انها عادة متبعة

ولما كان صباح اليوم التالي خرجنا نتمتع انظارنا ببروكسل — والبلد لا بأس بجماله فقد كان عاهلهم المتوفي والد الملك الحالي قد آلى على نفسهِ ليحسنَنَّ فيهِ عساه ان يجعل

شهُ باريزاً صغيرة تنبيه عن رحلاته المتابعة الى باريز الاصلية. وقد وفّق ايما توفيق في المظاهر الخارجية . فطرق العاصمة مستقيمة واسعة وفيها آيات للفن ومتاحف لا بأس بها

اما في ما سوى ذلك فخانهُ الخط فانك لا ترى في بروكسل نساء جميلات خفيفات الروح ولا ترى في اهلها ذلك الذوق الذي يسيك ما يحيك حولك القوم في باريز لاصطياد نقودك

وربما كان البناء الذي اقاموه قوساً للنصر احتفالاً بانقضاء خمسين عاماً على استقلالهم من خير ما في بروكسل . اما قصر ملكهم فعادي لا يستوقف النظر . انما احتضنوا دار العدل عندهم بأحسن المواقع وبأفخم الأبنية

محاكمهم ومحاكمنا

فترى محكمتهم قد اشرفت من قصر عظيم على كل البلد وأمامها ساحة واسعة لا يدركها الطرف

فانكش صديقنا المصري ودخلت اعضاء جسمه بعضها في البعض الآخر . ذلك انهُ عاد بذاكرته الى دور المحاكم في بلاده فأخذ يقابل هذه بتلك فالمحاكم المصرية دون محاكم العالم ذات دخل يفوق النفقة فلماذا لا تنفق الحكومة ما يزيد في ميزانية هذه المحاكم على تحسين دورها ؟ ان مظاهر العظمة لمن اكبر البواعث على انهاض النفس واحلال العزة القومية محل الاستكانة وعدم الاكتراث

وانك لتدور حول العالم فترى محاكم الناس قصوراً يزينها الفن وتكسوها النظافة ثوباً قشيباً. اما في مصر فعند ما خطر للقوم ان يشيدوا بناء للمحكمة العليا زجّوه في اضيق الاسواق واقذرها بحجة تقريبها من العامة ولكن الحقيقة ان الاجنبي الذي امر ببنائها لم يكن يدرك ما للمباني الفخمة من الاثر الباقي في تكوين العزة القومية

على انهُ ان كان الذنب ذنبهُ وهو غريب عن البلد فما عذر الحكومات الوطنية في الاحجام عن اصلاح ما افسد الاجنبي . وما بال هذه المحاكم الجزئية مبعثرة في انحاء البلد ضيقة قذرة لا تتسع للمحامين ولا لقضاة تاهيك بالمتقاضين حتى ليخيّل الى الاجنبي الذي يأتي العاصمة متفرجاً فيقوده القدر الى المرور بواحدة منها انهُ ازاء جمع احتشد للتسول امام سوق قديمة تباع فيها الاشياء القديمة

والغريب في امر الحكومات الوطنية انها انفقت عن سعة على بناء محكمة مختلطة وهي تترك المحاكم الاهلية على ما تقدم من الوصف على حين تطمع في مدّ اختصاصها الى جميع سكان مصر

***

جالت هذه الخواطر في فكر صاحبنا المصري وبدا التألم على وجهه. ذلك لانهُ كتم الامر

في سره فهو ان ملح نضح بلده ونفسهُ وكان اشد المه من تغاضي اولي الشأن في بلاده عن هذه الامور السهلة الواضحة

فولى وجههُ شطر الناحية من المرتفع الذي يشرف على اسفل المدينة حتى اذا انتهى الصحب من الدوران حول قصر العدل البلجيكي عادوا ادراجهم فزاروا كاتدرائية البلد ثم متحفها العسكري وهو متحف متواضع يدلك على حداثة عهد البلجيكي في الامور العسكرية ترى في صدر رَدَهة من رَدَهاته صورة جميلة منقنة الصنع تمثل نابوليون على جواده فتقول ان القوم لا يزالون يذكرون ايامًا كانوا فيها جزءًا من الامبراطورية الافرنسية ثم تلتفت الى اليمين فاذا صورة مثلها لو لتجتون تدرك انك في بلد محايد

وهذا الحياد الذي اصطنعت به البلجيك حتى صلح فرسايل لبسها ثوباً لا يكاد يعرف له لون تراه ظاهراً في اخلاقهم وفي فنونهم وفي تجارتهم

على انك لو اردت ان تختارصفة في البلجيك تمتاز بها عما سواها لكانت «العمل»

فحب العمل ظاهرة بلجيكية لاشك في الامر. حتى انهم اقاموا للعمل تماثيل نصبت في الميادين العامة وهذا امر لم يشاهده صاحبنا المصري في بلد آخر على ما يذكر

وحبُّ العمل حملك برقابهم بمنهم من اللهو والترف ويقذف بهم وباموالهم الى ما بعُد وقرُب من بلاد الله حتى اصبحت هذه الامة النشيطة من اغنى امم العالم على قلة عدد اهلها

***

وعدنا الى السيارة . ذلك ان الغرض من القدوم الى البلجيك لم يكن لمشاهدة الطبيعة فان الصناعة لم تترك في البلاد مشهداً طبيعيًا يستأهل الرؤيا ولم يكن لمشاهدة المدن البلجيكية فكلها اذا استثنيت غاند وبروج خالية من آيات الفن القديم الا في بروكسل فقد اختلط حديثها التجاري ببعض آثارها القديمة كقصر الدوقات فرحمه وكاد يذهب بجماله

انما كان الغرض زيارة مواقع الحرب ومعاينة تلك الآثار التي ابقوا عليها حتى يتركوا للزائر صورة صحيحة من سنوات ١٩١٤ الى ١٩١٨ فخرجنا من بروكسل في الصباح مبكرين فوصلنا اوستند حوالي الظهر . واوستند جميلة الجمال كله . جلست الى البحر واوسعت له صدرها فعانقها وكادت يداه تمتدان فتهصران خصرها

وهذا المتنزَّهُ المقام على الشاطىء لا تجد له مثيلا في العالم قاطبة ثم الرمال ثم الصخور ثم الطرق الممهدة لا تبرح يد الانسان تحسنها وفوق ذلك قصور هي فنادق اوستند جمعت ما شاء الترف وما شاء حب الاستمتاع ان تجمع . وزينتها هذا الكازينو القائم في الوسط كأنهُ سلطان تحيط به الجنود الامناء

وكان اول اثر شاهدناه من آثار الحرب قنطرة كبيراً ذا ادوار عديدة اصابتهُ قنبلة من قنابل الاسطول الانكليزي فخرقتهُ من وسطه من الاعلى الى الاسفل وابقت كل ما عدا ذلك كما هو فابقاه القوم ذكرى وشاهداً للفن الاثمى تخطئهُ القنابل الحرماء

اما ما عدا ذلك في داخل اوستند فقد اعيد سيرتهُ الأولى ابنية جديدة ذات رواء وروعة حسن. اما تخريب اوستند — اي الجزء الداخلي منها — فكان كلهُ من فعل الاسطول الانكليزي حتى يدفع الجيش الالماني عن الوصول الى الشاطيء

ميادين الحرب

وبعد ان تغدينا في اوستند همنا بالسيارة نزور مواقع الحرب في طريقنا راجعين الى بروكسل واستأجرنا دليلاً يرطن باللغات كلها ولا يحسن واحدة منها على ان يكون مترجماً يترجم لنا ما تقع عليه اعيننا فررنا بديكوود وانفرس والاير وما الى ذلك من المواضع التي اشتهرت اسماؤها في الحرب

اما صاحبنا المصري فما راعهُ الا رؤيا الخنادق الحربية والقلاع التي كان يردد ذكرها في التلغرافات الحربية ولم يكن يدرك لها صورة حقيقية من الواقع. قلعة لا تقل اكثر من ٣٠ او ٤٠ متراً من الارض قليلة الارتفاع قد امتزج الحجر بالحديد في جدرانها وامتدت الى كل نواحيها اسلاكٌ بعضها للتلفون وبعضها للاشارة وبعضها لتفجير القنابل وفي ارضها حجرات لا تكاد تتسع الواحدة منها لرجل جالس لها مخارج ومداخل يتيهُ فيها من لم يألفها ويفكر دماء الوف الألوف من المتحاربين في سبيل الاستيلاء عليها !

وهي الآن ساكنة صامتة تحيط بها الحقول المزروعة وكل انواع الحياة الدابة. فكان الطبيعة نسيت ما فعل الانسان او لم تكترث لما فعل وكانهُ هو يأبى الا ان يبقي على هذه الآثار دليلاً على قساوته وتوغله في الهمجية

وهذا خندق تنزل الى جوفه المرصوف فتدهش كيف كان ابن آدم يأوي اليه في الليل والنهار وفي البرد وفي الحر ايماً وشهوراً. وتعجب لهذا الذي يدعي انهُ سيد المخلوقات يتجرد عن هذه القشرة الرقيقة التي يسمونها حضارة ويلتحف الغراء ويفترش التراب جائعاً عطشان يتقي القنابل فوق رأسه كالخلد يدخل في وكره ، ويتقي الغازات الخانقة بغطاء على وجهه هو شر منها ، وكل ذلك في سبيل تقتيل اخيه الانسان. وتسير السيارة حتى ايبر فتشاهد نصباً قائماً فيها بشكل جسر هائل يضيع العقل في ارتفاعه وفي ضخامته وقد حفرت عليه من اوله الى آخره اسماء الذين قتلوا في الدفاع عن ايبر فاذا بهم اكثر من خمسين الفاً

من الانكليز . كل واحد منهم نام على هذه الارض واختبأ في مثل هذا الخندق وحمل قنبلة في يده يرميها الى خنادق الاعداء وكلهم جاع وبرد وتعذب . ولكل منهم اب وام وحبيب فلمثل هذا خلق الانسان ؟

وعلى طول الطريق وفي وسط هذه الحقول مدافن لا تعد قبورها . هذه انكليزية — وما اكثرها — وهذه بلجيكية وهذه المانية وكلها مكسوة بالازهار وهي غاية ما يستطيع الحي ان يفعله لأجل الميت . ولبثنا على هذه الحال ساعات والدليل يذكر هذه المعركة ويشير الى هذه المقبرة ونحن كأن على رؤوسنا . الطير من هول الذكرى

***

وكان علينا ان نخلع قبعاتنا دائماً كلما مررنا بمقبرة من هذه المقابر وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب واخذ برد الشمال يلطم وجوهنا ورؤوسنا . اما الرفاق فقد اعتادوا الامر واما صاحبنا المصري فأصيب بزكام شديد لم ينسه حتى الساعة فكان اذا عرف رجلاً اصيب في الحرب بساعة او مرض تذكر انهُ اصيب هو ايضاً بهذا الزكام من جراء الحرب العظمى واشتد بنا الجوع واعيانا التعب فجئنا الى خان صغير في قرية من هذه القرى الجديدة التي اعاد القوم بناءها بأموال التعويضات الالمانية

ومرَّ بنا بائع بيض كلاباً صغيرة فاكان من السيدة الانكليزية الا ان ابتاعت واحداً منها فجلس معنا في السيارة وله نباح وعواء يفلق الصخور

فكان صاحبنا المصري كمن اصيب بجنون . فوق الاصابة بالزكام . فانه كان على مذهب هؤلاء العقلاء الذين لا يفهمون للعطف على الحيوان معنى . فان المقام في هذه الدنيا لا يكاد يتسع لمعاشرة الانسان واحتمال اذاه او عطفه فكيف يتسع فوق هذا للدلال الكلاب وما اليها من الحيوان والحشرات . ولكنه اسرّها في نفسه مخافة ان يتهم بالتوحش بين قوم يقتلون بعضهم بعضاً ويشفقون على الحيوان

فما صدق ان عادت به السيارة الى بروكسل وكان قد انتصف الليل يقول ها نحن مع الدليل والسائق سبعة وثامنتنا كلبنا وهرع الى غرفته ووقع على سريره لا يعلم أن كان يصبح عليه الصباح

سامي الجريديني